المجاعة والوباء

في مصر من خلال مقالات الطبيب عبداللطيف البغدادي

محمد العاملي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المجاعة والوباء في مصر من خلال مقالات الطبيب عبد اللطيف البغدادي

محمد العاملي
كلية الآداب بني، ملال

تعرضت مصر خلال حكم الأيوبيين (566-648هـ)(1171-1250م) للعديد من الأزمات وترتب عنها مجاعات وأوبئة أثرت بشكل جلي على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمصر خلال هذه الفترة، وارتبط معظمها بمنسوب مياه. وهكذا إذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا، أي ستة عشر ذراعا، وهو بداية الضروري من الماء، تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان، وتروى نصف مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ويكون المحصول جيدا بالنسبة للفلاح والمستهلك. وإذا وصل إلى ثمانية عشر ذراعا، وهو نهاية الضروري، فإنه يروي جميع الأراضي الزراعية، وتحصل البلاد على غلة سنتين فأكثر[1]. أما إذا انخفض منسوب مياه النيل إلى أقل من ستة عشرة فيترتب عن ذلك عدم توفر المياه اللازمة لزراعة الأرض ؛ وإذا زاد المنسوب عن ثمانية عشر دراعا فإن الأراضي تغمرها المياه لمدة طويلة ولا يستطيع الفلاح زرع أرضه لانعدام قنوات التصريف. وفي كلتا الحالتين ينعدم المحصول فيعم القحط، ويحتكر التجار الغلال ويرفعون أسعارها، فتضعف القدرة الشرائية ويترتب عن ذلك حدوث المجاعات والأوبئة[2].

وإذا كانت المعلومات لا تسعفنا حينما نريد تتبع آثار كل أزمة على حدى وانعكاساتها على الاقتصاد والمجتمع المصريين، فإن بعضها يعتبر جديرا بالدراسة نظرا للآثار السلبية التي خلفتها، والتي شكلت منعطفا حاسما في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي.

---

[1] عاشور سعيد عبد الفتاح، والأيوبيون والمماليك، م.س.، ص.146؛ العريني الباز، الشرق الأدنى...م.س.، ص.189.

[2] البغدادي، الإفادة والاعتبار، م.س.، ص. 152-153؛ المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص.129-130.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فقد أجمعت المصادر التاريخية على أن الأزمة التي عرفتها مصر خلال الفترة الممتدة ما بين 596-598هـ/1200-1202م، والتي تزامن مع استيلاء الملك العادل على مقاليد الحكم في مصر الأيوبية، تعد "مفترسة لأسباب الحياة" بالنسبة للمصريين، وأنها "حوادث رهيبة، وقحط هائل، ووباء مروع اجتاح مصر"[3]. وانعكست آثارها على جميع جوانب الحياة في مصر، واستمرت هذه الآثار إلى نهاية حكم الأيوبيين وبعده. وقد احتفظ لنا عبد اللطيف البغدادي بوصف حي لهذه الكارثة، وبصورة لا تخلو من الرهبة.فمن هو هذا المؤلف ؟ وما هي أهم آثاره ؟ وماهي الصورة التي رسمها لنا عن هذه الجائحة ؟ وما هي نتائجها على مختلف نواحي الحياة في مصر الأيوبية ؟

المؤلف : مولده وتكوينه

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعيد، الموصلي الأصل البغدادي المولد.ولد ببغداد في سنة 557هـ/1162م.

تتلمذ عبد اللطيف على يد العديد من الفقهاء والعلماء. فقد تلقى دروسه الأولى على يد والده الشيخ يوسف الذي كان بارعا في علم الحديث وفي علوم القرآن والقراءات، كما تلقى الفقه وعلوم الدين على يد الشيخ عبد القاهرعبد الله بن محمد الملقب بالسهروردي، وأخذ النحو عن بعض أقطاب المدرسة النظامية كأبي البركات كمال الدين الأنباري وتلميذه أبي بكر بن سعيد بن الدهان النحوي الواسطي. وكان أثناء تتلمذه على ابن الأنباري عاكفا على حفظ بعض أمهات الكتب ككتاب اللمع لابن جني، وأدب الكاتب لابن قتيبة، ومشكل القرأن وغريب القرأن لابن الأنباري، والإيضاح لأبي علي النحوي.

بعد ذلك انكب البغدادي على الأخذ من مناهل العلم الواسعة، وهذا ما يتضح من قوله : "شمرت ذيل الجد والإجتهاد، وهجرت النوم واللذات. وانكببت على كتب الغزالي المقاصد، والمعيار، والميزان ومحك النظر.ثم انتقلت إلى كتب ابن سينا

[3] انظر مقدمة الدكتور علي محسن عيسى مال الله لكتاب الإفادة والاعتبار، لعبد اللطيف البغدادي، م.س.، ص. 44-45.

صغارها وكبارها، وحفظت كتاب النجاة وكتب الشفاء. وبحث فيه وحصلت " كتاب التحصيل" ل"بهمنيار" تلميذ ابن سينا، وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان وابن وحشية. زباشرت عمل الصنعة الباطلة، وتجارب الضلال الفارغة، وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة الذي تمم به فلسفته التي لا تزداد بالتمام إلا نقصا".

راح البغدادي يجوب الآفاق بحثا عن المزيد من العلم والمعرفة، فحط الرحال بالموصل التي أتقن فيها علم الكيمياء. ورحل إلى دمشق التي التقى فيها بعدد لا يستهان به من العلماء.ومن دمشق توجه البغدادي إلى بيت المقدس ومنه إلى مدينة عكا والتقى بصلاح الدين الأيوبي، والقاضي الفاضل الذي أرسله إلى دمشق لكن البغدادي فضل التوجه إلى مصر وهناك التقى ببعض المشاهير في ميدان الكمياء والطب نذكر من بينهم ياسين السيشبائي وأبو القاسم الشارعي، وأبو عمران موسى بن ميمون القرطبي الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي. وعاش البغدادي في كنف الأيوبيين متنقلا بين القاهرة ودمشق مشتغلا بالتدريس وصناعة الطب. وحط الرحال في نهاية المطاف ببغداد التي توفي بها 629هـ.

كتاب الإفادة والاعتبار :

أجمعت جل الكتابات التي اتخدت من عبد اللطيف البغدادي أو من بعض مؤلفاته موضوعا للدراسة على أن الرجل كان "عالما جليلا دؤوبا على الدرس والتتبع، لذلك استطاع أن يستوعب أغلب علوم عصره، ولما كملت أدواته تصدى للكتابة والتأليف مما يظهر ذكاءه وسعة اطلاعه".

وهكذا انكب البغدادي على التأليف منذ وقت مبكر، وألف العديد من الكتب التي تجاوزت سبعين مؤلفا في مختلف العلوم في الحديث واللغة والسياسة والأدب والكمياء والطب والتاريخ. ومن بين هذه المؤلفات "كتاب الإفاة والإعتبار في الأمورالمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"[4]. وينقسم هذا الكتاب الذي ألفه صاحبه حوالي سنة 600هـ، إلى مقالتين : المقالة الأولى تقع في ستة فصول خصصها البغدادي لوصف

[4] وعرفه الباحثون تحت عنوان " أخبار مصر" انظر (De Sacy(S، مصنف الحروب الصليبية، الجزء الخاص بالمؤرخين المشارقة، باريس 1898.

أحوال مصر الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في عصر صلاح الدين الأيوبي. أما المقالة الثانية فتقع في ثلاثة فصول تعرض فيها صاحبها لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي نتيجة الجفاف الذي أدى بدوره إلى نقصان المواد وارتفاع الأسعار، وصعوبة الحصول على الزاد وهذا أدى بدوره إلى حدوث مجاعة ووباء رهيبين أحدثا موتانا لم تعرفه مصر فيما قبل ولم يشهد البغدادي مثله. فنقل في مقالاته فصول هذه الكارثة بشكل رهيب قلما نجد له مثيلا في المصادر المعاصرة.وسنقوم بدورنا من خلال هذه الدراسة إبراز آثار هذه الأزمة على مختلف نواحي الحياة في مصر الأيوبية.

أسباب الأزمة :

ترجع أسباب هذه الكارثة التي وقعت في سلطنة الملك العادل إلى توالي سنوات الجفاف، وتوقف النيل عن الزيادة منذ سنة 596هـ/1199م ؛ بحيث لم تتجاوز الزيادة أثني عشر دراعا وأصابع[5]. وذكر البغدادي أن "هذا المقدار نادر جدا، فإنه لم يبلغنا هذا من الهجرة إلى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط"[6]. واستمر توقف النيل عن الزيادة ثلاث سنين متتالية. ففي المدن أدى ذلك إلى قلق الناس وازدياد مخاوفهم، وجشع التجار الذين لجأوا إلى تخزين الغلال طمعا في الحصول على المزيد من الأرباح. وأدى هذا إلى نقصان المواد الاستهلاكية المعروضة في الأسواق من جهة، وإلى ارتفاع الأسعار من جهة أخرى[7]. أما في القرى والمناطق الفلاحية فقد أدى انخفاض منسوب النيل إلى اختلال نظام الزراعة. فقد اضطربت أحوال الفلاحين، واستهلكوا ما لديهم من البذور المخصصة للزراعة[8]. وكان هذا مؤشرا لبداية كارثة كبيرة بدايتها مجاعة عامة ونهايتها أوبئة فتكت بعشرات الآلاف من ساكنة مصر سواء في المدن أو في القرى.

---

[5] البغدادي، الإفادة والاعتبار، م.س.، ص.154؛ المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.ص. 62.
[6] البغدادي، ص.154.
[7] المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص.63 -64.
[8] جابر سلامة المصري، الزراعة في مصر، م.س.، ص. 54.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد لخص المقريزي هول هذه الكارثة بقوله : "وكثر الصرعى من الأموات على الطرقات وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس، وأكثرهم يموت جوعا، وانتهى القمح إلى 180 دينارا المائة إردب، وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار وغدوا إلى البحر وترددوا إليه، ليستقوا منه الجرار ويبيعونها بثمن درهم للجرة، وقد لا يجدون من يشتريها... وارتفعت الأسعار مرة أخرى فضاق الخناق، وهلك الضعفاء، وفشا الموت وأكثره في الجياع، وصارت الأقفاص التي يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات. وامتدت الأيدي إلى خطف ألواح الخبز، ويضرب من ينهب ويشج رأسه ولا يرمي ما في يده مما خطفه"[9]. ولما اشتد الجوع بالفقراء "أكلوا الميتات والجيف والكلاب، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم. فقد كان يعثر على الفقراء ومعهم صغار مطبوخين جاهزين للأكل"[10].

فقد ذكر الطبيب عبد اللطيف البغدادي العديد من حالات أكل الآدمي التي وقف عليها بنفسه،أو سمعها من الثقاة. ومن بين ما ذكره بهذا الخصوص : "رأيت صغيرا مشويا في قفة وقد أحضر إلى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه، فأمر بإحراقهما"[11].

ويبدو أن أكل الآدمي أصبح أمرا مألوفا مع مرور الوقت. فقد ذكر البغدادي أنه رأى امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم، ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره[12].

وانتشرت هذه البلوى في جميع بلاد مصر من الشمال إلى الجنوب. ويستفاد من الروايات القليلة أنه "ليس فيها بلدا إلا وقد أكل فيه الناس لحم البشر من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والإسكندرية ودمياط وسائر النواحي".[13] فقد

---

[9] المقريزي، السلوك، ج.1، ص.130.
[10] البغدادي، م.س.، ص. 162.
[11] البغدادي، ص. 162؛ وذكر المقريزي أنه تم إحراق ثلاثين امرأة بسبب هذه الفضاعة؛ إغاثة الأمة، م.س.، ص. 62.
[12] البغدادي، الإفادة، م.س.، ص. 162.
[13] البغدادي، م.س.، ص.167.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وجد عند عطار ببلدة أطفيح عدة خوابي مملوءة بلحم الآدمي وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال : "خفت إذا دام الجدب أن يهزل الناس"[14]. أما بمدينة الإسكندرية فقد حكى بعض التجار أنه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة[15].

نتائج المجاعة على الأوضاع العامة بمصر الأيوبية :

بالرغم من محاولات السلطان الملك العادل الرامية إلى التخفيف من آثار هذه الجائحة باتخاذ بعض الإجراءات كإخراج كميات من الغلال والمؤونة من الأهراء السلطانية، وتقسيم الفقراء على أرباب الأموال. وتذكر المصادر أن العادل "أخذ منهم إثني عشر ألف نفس، وكذلك فعل جميع الأمراء وأرباب السعة والثراء"[16]، فإنه لم يفلح في القضاء عليها. فقد ذكر المقريزي أنه كان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف طفل صغير أو فخده أو شيئا من لحمه ؛ ويدخل الجار عند جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ فإذا هي لحم طفل[17]. وهكذا استفحلت الأزمة وخيمت بضلالها على جميع نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

1-النتائج على المستوى الديموغرافي :

أجمع الباحثون أن مصر عرفت في تاريخها مجاعات وأوبئة ترتبت عن نقصان في مياه النيل، لكنها لم تكن كارثية بالمقارنة مع الأزمة قيد الدرس. ذلك أن هذه الأخيرة أدت إلى انهيار ديموغرافي فضيع بسبب الهلاك الجماعي للسكان. والأرقام التي ذكرها الطبيب عبد اللطيف البغدادي، رغم قلتها، تقف دليلا على هول الكارثة. فقد ذكر البغدادي أن عدد الأموات الذين تم إحصاؤهم "في الديوان وضمته الميضأة[18] "في

---

14 البغدادي، م.س.، ص.164.
15 نفسه، ص.167.
16 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص. 62-64.
17 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص. 62.
18 الميضأة، المطهرة، وهي التي يتوضأ منها، أو الموضع الذي يتوضأ فيه، أو الموضع الذي يغتسل فيه الموتى، ابن منضور، مادة وضأ، لسان العرب، م.س.ج.1، ص. 189.

مدة اثنين وعشرين شهرا، أي إلى حدود سنة 598هـ/1201م" مائة ألف نفس وإحدى عشر ألف إلا آحادا"[19]. وذكر المقريزي أن العادل قام في مدة يسيرة بمواراة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[20]. ونعتقد أن الرقمين المقدمين، بالرغم من أهميتهما بالنسبة للفترة وتفاوتهما، يعكسان فقط أعداد الوفيات في القاهرة والفسطاط، وليس أعداد الهالكين في جميع أنحاء مصر. وهذا ما يستنتج من قول البغدادي : "وهذا مع كثرته نزر في جنب الذين هلكوا في دورهم وفي أطراف المدينة وأصول الحيطان، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر وما تاخمها وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلدين، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك أو أكل في سائر البلاد والنواحي والطرقات وخاصة طريق الشام، فإنه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق إلا ذكر أنها مزرعة بالأشلاء والرمم"[21].

لقد أدى الموت الجماعي إلى نقصان عدد السكان في المدن والقرى على حد سواء. وإذا كانت الأرقام تعوزنا حينما نريد أن نعرف بالتدقيق عدد الهالكين، فإنه بإمكاننا تقدير حجم الخسارة في المدن المصرية من خلال الروايات التي تشير إلى أن الخراب أصاب أكثر المواضع عمارة في القاهرة التي خلت تقريبا من سكانها، وأن أغلب أحيائها لم يبق فيها بيت مسكون أصلا[22]. وبلغ حجم الكارثة في الإسكندرية أن صلى الإمام يوم الجمعة في مسجد واحد على سبع مائة جنازة. وأن تركة واحدة انتقلت في نفس المدينة في مدة شهر واحد إلى أربعة عشر وارثا[23].

نفس الشيء ينطبق على الريف المصري. فالقرى التي كانت تشمل زهاء عشرة آلاف نسمة أصبحت فارغة ؛ والقرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر بها سوى اثنين أو ثلاثة[24]. وذكر البغدادي أن المسافر كان يمر بالبلدة ويجد البيوت مفتوحة، وأهلها موتى متقابلين، وربما وجد في البيت أثاثه وليس هناك من يأخذه.

---

19 البغدادي، الإفادة والاعتبار، م.س.، ص. 172.
20 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص. 64.
21 البغدادي، م.س، .ص. 178.
22 م.ن.، ص. 171.
23 م.ن.، ص. 179.
24 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص. 63.

2-النتائج على المستوى الفلاحي :

أفضت الموت الجماعي الذي أعقب المجاعة إلى نتائج سيئة على الأنشطة الفلاحي والحرفي والتجارية التي تعتبر المقومات الاقتصادية الأساسية التي يرتكز عليها نظام الاقطاعات الحربية، لما تضمنه من مداخيل تمكن من دوران مؤسساته العسكرية الإدارية والحربية.

فعلى المستوى الفلاحي، تشير النتف القليلة من الإشارات الواردة في المصادر التي اهتمت بالحدث أن الفلاحة تضررت بشكل كبير من جراء تتابع سنوات الجفاف بسبب قلة ري الأراضي والمجاعة. فقد خلت القرى من الفلاحين والحراثين بسبب هلاك العديد من ساكنة الأرياف. وأهملت صيانة شبكة الجسور البلدية والسلطانية، التي تساعد على حسن تصريف مياه النيل في الأوقات الطيبة، وتحمي البلاد من الغرق حينما يأتي منسوب مياه النيل مرتفعا، بسبب عدم وجود من يحرث الأرض من جهة، ولارتفاع سعر البقر من جهة أخرى. وعلى حد قول البغدادي فإن ما كان يزرع على قلته، تأكله الديدان، ولا يمكن زرعه لانعدام التقاوي[25].

ويبدو أن الظاهرة كانت عامة وشملت المناطق التي توجد بها أجود الأراضي من حيث المردودية. كالفيوم والغربية والإسكندرية ودمياط التي تزامن بها وقت الزراعة مع اشتداد الوباء وحصاد الموت، فمات على المحراث الواحد عدة فلاحين. ومما يفيد قلة اليد العاملة في الميدان الفلاحي أيضا قول البغدادي "أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا"[26]. وقد باشر بنفسه زراعة لبعض الرؤساء، فأرسل من يقوم بأمر الزراعة، فجاءه الخبر بموتهم، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم. وهكذا عوض أن يستأجر المزارع لخدمة الأرض، أصبح يستأجر لنقل الجثث وإلقائها في النيل "كل عشرة بدرهم".[27]

---

[25] البغدادي، م.س.، ص.173؛ المقريزي، إغاثة الأمة، ص. 63.
[26] البغدادي، م.س.، ص. 178.
[27] م.ن.، ص. 179.

3-النتائج على المستوى التجاري والحرفي :

يستفاد من المعلومات التي ذكرتها بعض المصادر المعاصرة للحدث أن المجاعة والجفاف اللذان خيما على مصر خلال هذه الفترة أديا إلى تدهور خطير في المعاملات التجارية والحياة الحرفية.

فعلى صعيد المعاملات التجارية قلت السلع المعروضة وقل من ينقلها ومن يشتريها. فانعدمت الخضر ولم تعد موجودة في الأسواق. وأدى ارتفاع أثمنة بعض المواد كالدجاج والبيض واللحم إلى قلتها واختفائها. أما التجارة التي بقيت رائجة فهي نقل الموتى إما لدفنهم أو إلقائهم في النهر. ونشطت المتاجرة في الجواري بشكل كبير، ولم يكن يتجاوز سعر الواحدة الحسناء منهن دراهم معدودة. وذكر البغدادي أنه عرض عليه جاريتان مراهقتان بدينار واحد، ورأى مرة أخرى جاريتين إحداهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهما.[28] وكان الآباء، تحت ضغط آفة الجوع، يتخلصون من أبنائهم في الأسواق وفي الزحام، ويقدمون بناتهم كهدايا حينما يتعذر عليهم بيعهن. وكثيرا ما ترامى الولدان والصبيان الذين يتميزون بالحسن والجمال على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم.[29]

أما على صعيد الحياة الحرفية فإن النصوص تفيد أن الحرفيين كانوا أكثر تضررا من غيرهم نظرا للكساد الذي حل بهم نتيجة قلة المشتري، وهلك معظمهم بمصر. فقد كان بالقاهرة وحدها تسع مائة منسج للحصر فلم يبق إلا خمسة عشر منسجا. وحكى بعض الوافدين على القاهرة أنه مر من بلد كان فيها أربع مائة دكان للحياكة فوجدها خرابا، وأن "الحائك في بيت حياكته ميت وأهله موتى حوله"[30]. هذا النزيف مس تقريبا جميع الحرف الأخرى كالخبازة والعطارة والإسكافية، والخياطة وغيرها من الحرف. فعلى حد قول البغدادي : "لم يبق من كل صنف من هؤلاء إلا نحو ما بقي من الحصيريين أو أقل من ذلك"[31]. وفي ظل هذه الكارثة فضل العديد من الحرفيين الهجرة إلى الموصل وبغداد وخراسان وبلاد الروم واليمن

---

[28] نفسه، ص.170.
[29] نفسه، ص. 170-171.
[30] نفسه، ص.169.
[31] نفسه، ص.176.

والمغرب. وكان مصير أغلبهم كمصير الذين فضلوا البقاء في مصر، خصوصا أولئك الذين اختاروا طريق الشام والذين أضحت جثثهم "مأدبة للطير والسباع، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل منهم".[32]

وذهب بعض المؤرخين أمثال غواتين (S) GOITEIN، وآشتور (E) ASHTOR إلى أن العصر الأيوبي يعتبر عصر رخاء وازدهار، إذ عرف ارتفاعا ملحوظا في الأجور وانخفاضا في الأسعار. فقد قدم الأول، اعتمادا على وثائق يهودية تعود لسنة 1199-1200م، مثالا لعامل في قطاع البناء، وذكر أنه تقاضى مبلغا شهريا يزيد في المتوسط عن دينارين، وهذا المبلغ يفي بحاجيات أسرة من الطبقة الوسطى لمدة شهر كامل[33]. وأرجع الثاني ارتفاع الأجور وانخفاض الأسعار إلى ظهور نظام النقد الثنائي المعدن المكون من الذهب والفضة.[34]

الواقع أن المصادر الإسلامية أكدت ما ذهبت إليه وثائق الجنيزا اليهودية، وتحدثت عن ارتفاع الأجور خلال فترة المجاعة التي اجتاحت مصر خلال تلك الفترة. فقد ذكر المقريزي أن أجور أرباب المهن والأجراء والحمالين والخدم والسواس والحاكة والبناة ونحوهم تضاعفت تضاعفا كبيرا، غير أنه لم يرجع ذلك إلى الرخاء الاقتصادي وانتعاش المعاملات، بل إلى النزيف الديموغرافي وهلاك الساكنة بسبب الموت، بحيث أصبح من غير السهل العثور على عامل، أو حرفي إلا بعد جهد جهيد.[35]

ولا يمكننا اعتبار انخفاض أسعار بعض المواد مؤشرا على الرخاء الاقتصادي، وعلى عودة الحياة إلى حالتها الطبيعية. فإذا كانت المصادر تشير إلى أن سعر الإردب من القمح تراجع من ثمانية دنانير إلى ثلاثة دنانير، فإن ذلك يعبر عن فداحة وتفاقم الوضع أكثر مما يعبر

---

32 نفسه، ص. 170.

33 غواتين(س.د)، دراسات في التاريخ الإسلامي، ترجمة عطية القوصي، طبعة الكويت، 1980، ص.186.

34 آشتور (إ)، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، م.س.، ص. 287.

35 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص.164.

عن الرخاء. وعبر البغدادي عن ذلك بوضوح بقوله أن الأسعار تراجعت ليس لوفرة المحصول "بل لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول"[36].

4-النتائج على المستويين الاجتماعي والأخلاقي :

أدت المجاعة إلى إحداث مجموعة من التغييرات همت بالأساس البنية الاجتماعية. بحيث ظهر خلل اجتماعي تمثل في انكماش الطبقة الوسطى، في حين تضخم طرفي الهرم الاجتماعي : أي الطبقة العليا، والطبقة الدنيا.

فقد أشار المقريزي إلى تزايد ثراء الطبقة العليا التي تضم أهل الدولة وكبار الأمراء والتجار بفعل احتكار السلع والمؤن وعدم توفير الكميات اللازمة منها في الأسواق لتحصيل أكبر ربح ممكن منها.واستفادوا أيضا من خلال تحكمهم في أسواق العملة والنقود فازدادوا غنى بتزايد أرباحهم وفوائدهم عن القروض[37]. وانضم إلى هذه الطبقة العليا أشخاص جدد منهم من أصبح ثريا بسبب متاجرته في سلعة معينة كالقمح وغيره من المواد. فقد ذكر البغدادي أن "رجلا مصريا شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجا بستين ديناران وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مائة دينار"، ومنهم من أصبح غنيا بسبب مال انتقل إليه بالإرث.[38]

من جهة أخرى ارتفعت أجور الفئات الدنيا من العمال والحرفيين، في حين انكمشت الطبقة الوسطى من العلماء والفقهاء والموظفين ونحوهم ؛ وأضحوا، على حد قول المقريزي، "بين ميت أو مشتهي الموت لسوء ما حل بهم".[39]

على المستوى الأخلاقي يمكن القول أن الأزمة- الكارثة جعلت الإنسان المصري، تحت ضغط لهيب الجوع، يبحث عن جميع الحلول

---

36 البغدادي، الإفادة، م.س.، ص.176.
37 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص. 114-120.
38 البغدادي، م.س.، ص.172 و176.
39 المقريزي، إغاثة الأمة، م.س.، ص 124.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي كل الاتجاهات وبكل الوسائل المتاحة لديه، بما فيها اللجوء إلى السلوك الحيواني أو "الطباع السبعية" بتعبير الطبيب البغدادي.[40]

فبالإضافة للأمثلة التي سقناها وتحدثنا فيها عن أكل الآدمي ميتا في مرحلة أولى وتصيده حيا لما استفحل الجوع بالفقراء في مرحلة ثانية، لم تعد مقتصرة على الفقراء فحسب بل امتدت لتشمل المياسير والمساتير الذين استطابوا أكل لحم الآدمي. فقد ذكر البغدادي أن "امرأة من نساء الأجناد ذات مال ويسار كانت حاملا، وشمت رائحة طبيخ عند بعض الصعاليك، فطلبت منه وألفته لذيذا، وأخبروها أنه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فكشف أمرها وأرجئ قتلها احتراما لزوجها وإبقاء على الولد في بطنها".[41]

من جهة ثانية انعدم الأمن في الطرقات، وانتشر القتل والسطو في طريقي الفيوم والإسكندرية. فقطاع الطرق كانوا يتصيدون الناس ويذبحونهم ويسلبون أموالهم. وذكر البغدادي أن الوالي قبض على جماعة منهم، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا، أن الذي خصه دون أصحابه ستة آلاف دينار.[42]

من جهة أخرى انتشر البغاء بشكل فضيع، وانتشرت دور الدعارة وتكاثرت وأضحت تجارة مربحة. وقد لفتت هذه الآفة انتباه المثقفين المعاصرين فأفردوا لها فصولا طويلة في كتاباتهم.من ذلك ما ذكره البغدادي بقوله :" وأعجب من جميع ما اقتصصناه أن الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على أصناف شهواتهم لا يرعون منغمسون في بحر ضلالاتهم، كأنهم هم المستثنون. فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجرا ومكتسبا ومن عهارهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعم أنه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر.[43]

من جهته لخص الفاضل الحالة الاجتماعية في مصر بقوله : "وفي البلد من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بها ومن الفسق والزنا واللواط ومن شهادة الزور ومن

---

40 البغدادي، الإفادة والاعتبار، م.س.، ص. 165.
41 م.س.، ص. 165-166.
42 نفسه، ص. 168.
43 نفسه، ص.171.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مظالم الأمراء والفقهاء، ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام ومن عدم النكير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله. وظفر بجماعة مجتمعين في حارة الروم يتغذون في قاعة في نهار رمضان فما كلموا، وبقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب خمر في ليل رمضان فما أقيم فيهم حد".[44]

يتضح من خلال هذه المعطيات أن المجاعة التي اجتاحت مصر في أواخر القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر الميلاديين كانت لها عواقب وخيمة، إن على المستوى الاقتصادي حيث أنه بعد سنتين متتاليتين من الجفاف ارتفعت أجور العمال، وانخفضت الأسعار بشكل مروع لم يسبق له مثيل، وهذا يبدو في حد ذاته تناقضا لا يتماشى مع المنطق الطبيعي للأحداث. أو على المستوى الاجتماعي حيث ظهرت بنية اجتماعية جديدة. وأصبح هؤلاء الأغنياء الجدد يشترون المناصب والرتب العسكرية من الأمراء، ويتشبهون "بأهل الدولة". وأدى ذلك إلى افتقاد الدولة للعناصر الجيدة ذات الخبرة الإدارية والعسكرية التي مكنت الأيوبيين من تثبيت حكمهم وتحقيق الانتصارات على الصليبيين.

[44] المقريزي، الخطط، م.س.، ج.2، ص.24.